

ثلاثية الدين و اللغة و الثقافة و دورها في إرساء الهوية الوطنية

أ : شتيح بن يوسف-

جامعة عمار ثلجي الأغواط

RESUME

j'aborde par le biais de cette intervention, les relations entre les constituants nationaux qui sont indissociables et ouvre une brèche à certains esprits malveillants, afin de nuire, en utilisant certaines idéologies qui n'ont apporté rien de bon au pays, que ni l'histoire, ni la science, ni la raison, ni même l'expérience n'ont accepté leurs visions.

Les constituants nationaux sont : la langue, la culture et la religion. Ces trois éléments se rejoignent et se fusionnent pour former notre identité nationale et notre union historique même si parfois des différents peuvent surgir mais ils demeurent tout à fait naturels.

L'identité s'alimente d'une façon permanente et régulière et devient plus forte de manière équilibrée de la religion, de la langue et de la culture et loin de toute spéculation ainsi que toutes raisons de désaccords.

L'Algérie a beaucoup souffert lors du colonialisme et après l'indépendance de ce phénomène et doit retrouver sa tranquillité et approfondir des discussions franches sur l'identité et ses composants essentiels pour un décalage civilisationnel réel.

Le colonisateur a utilisé tous les moyens qui lui ont été disponibles pour déformer l'identité nationale mais en vain.

La discorde où les discussions ne concernent pas la détermination des dimensions de l'identité nationale et ses composants mais des fois c'est notre compréhension de ces dimensions de leurs impotences et leurs relations mutuelles et leurs rôle actuel et future plus promettant qui sont les vraies causes, par exemple , il n'existe guère de personne qui nie la religion mais cela relève de nos interprétations sur la religion et son rôle dans notre vie sociale et sa relation avec les autres constituants comme l'arabe , l'amazigh

Donc quelle est la relation positive entre ces trois éléments : la religion, la langue et la culture avec l'identité ? Et quelles sont leurs influences mutuelles ? Comment monter les relations fortes entre ces composants ? Et comment peuvent-ils ensembles collaborer pour fonder et protéger l'identité nationale ?

مقدمة :

تبحث هذه الصفحات في مجموعة من العلائق والوشائج بين المقومات الوطنية التي لا يجب أن يفرق فيما بينها أو يشكك في ضرورة التلاحم والترابط بينها كما يحلو لبعض العابثين أن يثير الشبهات ليمرر ما يشاء من الإيديولوجيات و الطروحات التي أثبتت الواقع والتاريخ والعلم والعقل أنها ما جرت على الوطن إلا الوبال والبولار . هذه المقومات تلتقي وتتعانق لتشكل هويتنا الوطنية، ووحدة التاريخية بالرغم من الاختلاف المشروع الذي لا يمكن تجاوزه فالهوية تتغذى وبشكل دائم منتظم، وتتقوى بصورة متوازنة من الدين واللغة والثقافة وبعيدا عن المزايدات والمهاترات والتلاعبات وجميع أسباب الفرقة والشتات ، وقد عانت جزائرتنا معاناة شديدة إبان الاحتلال وبعد الاستقلال وقد آن الأوان أن تستريح فتعمق النقاش في صراحة وجدية حول الهوية ومقوماتها الأساسية من أجل إقلاع حضاري ممكن وقد عملت فرنسا دهرًا تحاول عبثًا طمس معالم هويتنا ومحو المكونات والمقومات التي تشكلها ولكن هيهات.

إن الخلاف أو الجدل لا يتعلق بتحديد أبعاد الهوية الوطنية ومكوناتها في حد ذاتها ولكن أحيانا يدور حول فهمنا لهذه الأبعاد والمكونات، وحول المكانة التي يجب أن يشغلها كل منها، وحول علاقاتها ببعضها البعض، وحول الدور الذي ينبغي أن تلعبه في حياتنا الحاضرة وفي رسم معالم المستقبل المنشود فمثلا لا يوجد على الأقل ظاهريا من يرفض الإسلام كمكون من مكونات هويتنا ، ولكن الخلاف الكبير حول فهمنا للإسلام ودوره في حياتنا وحول علاقته بباقي المكونات الأخرى وكذا الأمر بالنسبة للعربية والأمازيغية . وهذا الخلاف والصراع ناتج بالدرجة الأولى عن محاولات التوظيف السياسي ، والاستغلال الحزبي الضيق لمسألة الهوية الوطنية ، أو محاولة احتكار أبعادها أو فرض الوصاية عليها من جانب حزب أو تيار أو جماعة معينة لأنه لا يوجد في الحقيقة أي سبب للخلاف نابع من طبيعة هويتنا أو أحد مكوناتها المعروفة ، فما هي العلاقة الإيجابية بين ثلاثية الدين (الإسلام (واللغة والثقافة مع الهوية ؟ وما مدى التأثير والتأثر فيما بينها ؟ وكيف يمكن إبراز علائق شديدة الوثاق بين عناصر هذه الثلاثية؟ وكيف تساهم مجتمعة في إرساء الهوية الوطنية وحمايتها؟

1 مفهوم الدين:

بعيدا عن التعريفات الكثيرة لغوية أو اصطلاحية التي تزخر بها كتب المعاجم والمصطلحات والتعريفات، وبما أن الإطار العلمي البحثي محدد وهو إشكالية الهوية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري فإني لا أتردد في بيان مفهوم الدين الذي أقصد به الإسلام الدين الرسمي للوطن فالدين مكون أساسي لهوية أي أمة، وربما كان في الغالب المكون الأساسي لها "فهو الذي يحدد فلسفة الفرد عن سر الحياة ، وغاية الوجود ويجيب عن الأسئلة الخالدة التي فرضت نفسها عليه في كل الأزمنة :من أنا ؟ ومن أين جئت؟ وإلى أين أمضي؟ لماذا أحيأ ؟ لماذا أموت؟ ماذا هناك بعد الموت؟ والإسلام تأثيره العميق و الشامل في حياة الأمة عامة وعلى الشعب الجزائري خاصة ، فلا أحد ينكر مبلغ هذا التأثير على الإنسان الجزائري ، فاللغة مشحونة بمعاني الدين وكذلك الثقافة وحتى الفلكلور بأمثاله وحكمه ممزوج بالدين ومرد ذلك إلى طبيعة الإسلام المتشعبة في نواحي الحياة الإنسانية والفردية والجماعية والشاملة لكل المجالات الاقتصادية والروحية والفكرية والثقافية والاجتماعية التي منحته قوة مهيمنة على كل الذين يؤمنون به ¹" وهذا ما أكدته عالم الاجتماع الفرنسي غوتساف لوبون أن "تأثير دين محمد في النفوس أعظم من أي دين آخر ولا تزال العروق المختلفة التي خلفها القرآن مرشدا لها تعمل بأحكامه كما كانت تفعل منذ ثلاثة عشر قرنا، أجل قد تجد بين المسلمين عددا قليلا من الزنادقة والأخلاء ولكن لن ترى من يجرؤ منهم على انتهاك حرمة الإسلام في عدم الامتنال لتعاليمه الأساسية ²"

والاسلام بمعناه التعبدى الشعائري يهتم بجوانب الحياة ، فميراثنا الفقهي والتشريعي إعتنى بأمور النظافة وقواعد الصحة العامة ، مروراً بمسائل الفرد والأسرة والعمل والمال و صولا إلى قضايا السياسة والدفاع والعلاقات الدولية، منبها على ضرورة المحافظة على البيئة والإنكار على المفسدين في الأرض، أمرا بالعدل والإحسان ، مكرما الإنسان حاميا لحقوقه مهما يكن لونه أو جنسه أو عقيدته .كما لا ينبغي أن نفهم من هذا أن الإسلام موسوعة أو قاموسا ضخما يملك حلو لا جاهزة سحرية لجميع مشاكل الناس المستعصية .إنه يملك المبادئ العامة والمعالم الأساسية التي ترسم الحدود وتوضح الغايات والمنطلقات، أما أثناء الممارسة والتطبيق فيفتح الباب للاجتهاد والابتكار والإبداع؛ فالدين أكبر من أن يتدخل في أدق التفاصيل في حياة الفرد والمجتمع .فشمولية الإسلام ليست تسلطية كالأنظمة الشمولية الشيوعية، "

إنها شمولية لا تعني الجمود أو الحرفية، ولا تعني إقامة مجتمع مبني على المطيعة العقيمة، إنها تعني الإبداع الفردي والجماعي، أو الاقتباس من تجارب الآخر، والتكيف مع الواقع بما لا يتناقض مع الأصول. وقد أثبتت الحضارة الإسلامية كما عرفها التاريخ تنوع الممارسات والصور الحضارية في المجتمع الواحد خلال فترة زمنية معينة وأقرت وشهدت التعددية في مختلف صورها العرقية والدينية والفكرية والسياسية والثقافية هذه المرونة والطرح يسمح باستيعاب المستجدات والتحولات إلى تمس واقع الإنسان والحياة.³

وقد ظلم الدين ظلما كبيرا: فمن الناس من يدعو إلى وضعه في مكان مقدس حفاظا عليه من الاستعمال غير السليم، ومنهم من يرى ألا نخرجه عن العبادة ومظاهرها المختلفة في بعض المناسبات، وهناك من استعان به لتفصيل فتاوى حسب الطلب، وهناك من يراه نصوصا غير قابلة للفهم والاجتهاد. فكانت النتيجة أن ظهرت للإسلام صور متعددة؛ فظهر هناك إسلام إشتراكي وإسلام على المقاس الأمريكي، وإسلام صوفي يقابله إسلام سلفي، وإسلام نخبوي يحترق الجماهير ولا يحرص على رفع الغبن عنها. وأسوأ صور الإسلام الإجرامي تحت عنوان الجهاد. إن الفهم السليم للدين وشرائعه وتعاليمه، والاعتراف بدوره في إصلاح المجتمع باعتباره المكون الأساسي من مكونات هويتنا وشخصيتنا الوطنية ورمز وحدتنا. ولنا في حاجة ملحة إلى بيان العلاقة العضوية بين الدين والهوية لأن ذلك شأنه شأن المسلمين.

2 مفهوم اللغة:

اللغة في المفهوم العام قدرة على التعبير، ومنحة ربانية، أشار إليها القرآن حين أشار إلى تعليم آدم الأسماء كلها في قوله تعالى: {وعلم آدم الأسماء كلها}⁴ وجعل الكتاب المنزل بلسان عربي مبين، والإبانة دليل تشريف، والعجز عنها منقصة في قوله تعالى: {أومن ينشئ في الحلية وهو في الخصام غير مبين}⁵ و طلب موسى أن يشتد عضده بأخيه هارون أفصح منه لسانا "⁶ واللغة عنوان الوجود الإنساني، وبها انتقل نقلة نوعية ميزته في منظومة الوجود التي يعمرها بالشاركة مع غيره من الأجناس الأخرى التي أوجدها الله خادمة له، ساعية في راحته ونفعه. وتتمتاز لغة الإنسان بالإبداعية والانفتاح، فبإمكان الناطق بها أن ينتج ما يشاء من الجمل، ويعبر عن كل موقف يراه، وعن كل فكرة تخطر له دون عناء. واللغة وسيلة التعبير عن الماضي والحاضر والمستقبل، وهي تنتقل من عصر إلى عصر، ومن جيل إلى جيل،

ومن بيئة إلى بيئة مستجيبة لمتطلبات الحياة .. وقد تفنن المنظرون في مختلف التخصصات في تعريفهم للغة ، ولكن علماء اللسان من العرب والغرب هم أقرب إلى فهم اللغة وسبر أغوارها، وتتبع معانيها الوظيفية وتحديد آلياتها التي تضمن لها التواجد بفاعلية وقوة ⁷ "و قد أحدث "فرديناند دو سوسير" وهو يؤسس لعلم اللسانيات الحديث ثورة معرفية شاملة في معالجة إشكالية اللغة، إذ لم تعد اللغة من بعده ظاهرة متمثلة في المظاهر السطحية من الألفاظ والعبارات والنصوص، بل هناك "نسق معرفي من العلاقات الرابطة بين الألفاظ والمعاني، وبين أصل اللغة ومشتقاتها وبين الكلام ونية المتكلم ،واللغة نظام من الدلائل يعبر عما للإنسان من أفكار ⁸" يقول نبيل علي "لقد أصبح شاغل الفكر اللغوي بعد "دو سوسير" هو الكشف عن ماهية البنية اللغوية العميقة، و تفسير الآليات الدفينة لمنظومة اللغة.⁹"

وما يعيننا ليس هو الجدل حول ماهية اللغة وهو جدل إيجابي بناء عميق بلا ريب ولكن الذي يحول دون الجدل إلى استثمار حقيقي في الواقع التطبيقي هو الجانب الواقعي الذي تتصور فيه اللغة كأداة للتواصل الإيجابي بين البشر .وقد تبلورت فكرة التواصل في اللغة في كتابات "ميخائيل باختين "، ثم بعثت في طروحات اللسانيين الغربيين باعتبار أن الإنسان يخضع لعادات وتقاليد سلوكية وكلامية تلزمه بأن يتصرف وفق منطق معين يرضي الجماعة التي ينتسب إليها "واللغة وهي تبلغ حد كمالها المنطقي يقتضي أن تجيء مقابلة تماما لأحوال العالم ، فتجيء أحرف الكلمات مقابلة لطبائع الأشياء ، وتجيء المفردات مقابلة تماما لما في الطبيعة من هذه الأشياء بما لها من صفات، وما بينها من علاقات، بحيث لا تدل الكلمة الواحدة إلا على مقابل طبيعي واحد كما أنه لا يقابل الشيء الواحد في الطبيعة إلا كلمة واحدة في اللغة ، واللغة لا بد أن تحمل خبرا ¹⁰ "وهنا تلتقي الفلسفة والمنطق في توجيه البحث اللغوي نظريا في اتجاه التوازن بين مواضع اللغة والواقع اللغوي وصولا إلى أن اللغة وسيلة التعبير المثلى عما يدور في الأذهان " .ولا غرابة أن نتكلم عن الدال لأنه سيكون إطارا بسيطا لفهم كيفية ظهور الهوية إلى حيز الوجود لأن العلامة اللغوية عن "دي سوسير" تتألف من تزامن الدال بمدلوله ؟ على اعتبار أن الهوية القومية تبدأ بكونها دالا لمدلول، يوجد كرامة فقط في بداية الأمر، وبدافع كاف لينتقل إلى دافع يعبر عن مدلول ، سوف يعبر عما يوصف به بعد ذلك.¹¹ "

3 مفهوم الثقافة :

الثقافة بمعناها الواسع وكما ورد في آخر تعريف لها في مؤتمر مكسيكو " 1982 هي جماع السمات الروحية والمادية والفكرية والعاطفية التي تميز مجتمعا بعينه ، أو فئة اجتماعية بعينها وهي تشمل الفنون والآداب وطرائق الحياة كما تشمل الحقوق الأساسية للإنسان ونظم القيم والتقاليد والمعتقدات، وإن الثقافة هي التي تمنح الإنسان قدرته على التفكير في ذاته، والتي تجعل منا كائنات نتميز بالإنسانية." إن هذا التعريف الذي له دلالاته العميقة في مفهوم الثقافة ومعه عشرات التعاريف السابقة واللاحقة التي وضعها العلماء على امتداد أكثر من قرن من الزمان وبالضبط منذ سنة 1903 لا تخلو جميعها من الإقرار بخاصيتين أساسيتين في الثقافة هما :

"الأولى : إن الثقافة شيء مكتسب ولا صلة لها بالغزيرة في الإنسان ومن ثم فتوحيدها والمحافظة على أنماطها العامة التي لها علاقة بالهوية تظل دائما رهنا بإرادة الإنسان الواعي بوجوده كفرد في أمة ذات هوية متميزة .

الثانية : إن الثقافة متبادلة التأثير مع الإنسان، وتؤثر بصفة خاصة على السلوك الفردي والجماعي ..ولبلورة معاني الثقافة في حياتنا اليومية فإن لها جانبين متكاملين هما:

الأول : الجانب المعنوي القائم على التفكير والتأمل والشعور والاعتقاد .

الثاني : الجانب السلوكي المادي المتمثل في قواعد المعاملات والعلاقات بين أفراد المجتمع وكذا جميع الاختراعات والإبداعات العلمية والفنية التي يحققها الأفراد.

و لكل جانب مستويان اثنان :

الأول :مستوى عالمي خاص بالإنسان كإنسان بدءا من ظاهرة ارتداء الثياب لستر العورة إلى ظاهرة اللغة والاعتقاد والعلاقات الأسرية وظاهرة السلطة وغيرها من الخصائص الثقافية .

الثاني :مستوى محلي وطني أو قومي الذي ينتقل من العام إلى الخاص أي من الثياب إلى نوع الثياب، و من قواعد الأخلاق إلى نوعها ومحتواها القيمي، ومن ظاهرة النطق إلى نوع اللغة وهذا ما يجعل أنماط الثقافة الوطنية التي هي أساس الهوية الوطنية تختلف بالضرورة عن الأنماط الثقافية العالمية في النوع وليس في الدرجة من الجانبين المادي والمعنوي في حين أن مميزات الثقافة الوطنية في عمومياتها هي

واحدة النوع بالضرورة في الجانب المعنوي على الأقل، وقد تختلف من منطقة إلى أخرى داخل الوطن الواحد في بعض الجوانب المادية الداخلة في عداد البدائل أو الخصوصيات الجغرافية والمناخية.¹² ولا بد من الفرز بين الثقافة كظاهرة إنسانية والثقافة النوعية في المجتمع "الأمة" "ذي الثقافة المتجانسة في الأسس كما يفترض أن تكون، كما يجب وضع الأيدي على نقاط الاتفاق الملزمة ومساحة المباح من النقاط الأخرى في هذه الأسس المتداخلة بقصد إدراك العلاقة بين الهوية والسمات الثقافية العامة المميزة لأمة ما عن غيرها بطرح بعض الباحثين هذا التقسيم العلمي للثقافة إلى مستويات أو دوائر ثلاث هي :

"الأولى: العموميات وهي النظم ذات العلاقة الوطيدة بالثقافة والهوية ، وذات التأثير المباشر لها منها وعليها والتي يخضع لها كل أفراد المجتمع الواحد كاستعمال اللغة الوطنية في الأماكن العامة مع أبناء الوطن الواحد بصفة خاصة أو التزام حدود الشريعة الإسلامية في الدول التي إختار أن يكون نظام الحكم عندها كذلك .
الثانية: البدائل الثقافية فهي مجموعة من النظم التي لا تطبق على كافة الأفراد في المجتمع .. وإنما هي نظم وأنماط ثقافية اختيارية بحيث يمكن للفرد أن يختارها كلها أو بعضها أو يتركها دون حرج ، ودون أن يناله عقاب من أحد .

الثالثة: الخصوصيات فإذا كانت النظرة الخارجية للمجتمع تعطينا صورة شكلية عن الطابع الثقافي العام الذي يميز المجتمع الواحد ويسمى هويته الوطنية بطابع خاص ، فإن النظرة إلى المجتمع من الداخل مع بعض التدقيق تكشف لنا عن وجود خصوصيات ثقافية ذات علاقة ببعض الفئات الاجتماعية دون الأخرى، وهذه الفئات تتحدد بحسب السن والجنس والمهنة والمناطق الجغرافية داخل البلد الواحد .ومن هنا نجد أن أفراد المجتمع الواحد إذا كانوا يلتقون بالضرورة حول العموميات الثقافية أو في بعض البدائل فإنهم حتما يختلفون في الخصوصيات الجغرافية والفلكلورية التي تعتبر من مكونات الهوية دون أي تناقض معها.¹³

4 مفهوم الهوية وماهيتها:

تعتبر الهوية من المصطلحات المتداولة تداولاً كثيراً على الساحة السياسية والثقافية وهو مفهوم حديث لا يتجاوز نصف قرن من الزمن تقريباً، والهوية هي الحقيقة الجزئية، مما يعني أن الماهية إذا اعتبرت مع التشخيص سميت هوية، وقد يراد بالهوية معنى الوجود الخارجي وقد يراد بها التشخيص، وقالوا إن الهوية مأخوذة

من الهو، وهي تقابل الغيرية .¹⁴ وفي المعجم الوسيط أن الهوية حقيقة الشيء أو الشخص الذي تميزه عن غيره ، وهي أيضا بطاقة يثبت فيها اسم الشخص وجنسيته ومولده وعمله، وتسمى البطاقة هوية أيضا¹⁵ وعند الشريف الجرجاني في التعريفات الهوية هي الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتغال النواة على الشجرة في الغيب المطلق .¹⁶ والهوية الحضارية للأمة هي القدر الثابت، والجوهر المشترك من السمات والقسمات العامة التي تميز هذه الأمة عن غيرها من الحضارات، وتجعل للشخصية القومية طابعا تتميز به عن الشخصيات الأخرى.¹⁷

والهوية من الناحية الفلسفية مشتقة من الهو (وقد نقلت إلى العربية كما يقول الفرابي لتؤدي المعنى الذي يحمله لفظ) هست (بالفارسية، ولفظ) استين (باليونانية، أي فعل الكينونة في اللغات الهندو الأوروبية، وهو فعل يربط بين الموضوع والمحمول ثم عدلوا عنها و وضعوا لفظ الموجود (مكان) الهو (و) الوجود (مكان) الهوية (ومع ذلك فقد فرضت كلمة الهوية نفسها كمصطلح فلسفي ذي دلالة عميقة يستدل به على كون الشيء هو نفسه .¹⁸

والسؤال عن الهوية محير يثير إشكالا معقدا لأن الملامح العامة للهوية هي التي تحدد وجودنا وتحقق فاعليتنا، وهي لا تمثل مجرد انتماء إرادي بقدر ما تمثل منهجية حياتية عميقة وهي تشبه الشفرة التي يتعرف بها الآخرون علينا وهي شفرة تجمع عناصرها المعرفية من التاريخ والثقافة والطابع الحياتي والواقع الاجتماعي وتبرز في تعبيرات خارجية كالرموز والإشارات والآثار والمنقولات والعادات والتقاليد باعتبارها عناصر معلنة تجاه الآخرين .¹⁹

و الهوية في معناها المنطقي صورة للنفس ولكنها بمعناها الوجودي أي الوجود العيني لها مرتبطة بجملة معطيات منها :المادة والتاريخ والمجتمع ولا معنى للهوية بمعزل عن الانا والآخر ولا غياب لتصور الفرق بين الثابت والمتحول في طبيعة الذات الإنسانية للفرد ،ولا في طبيعة الذات الحضارية للأمة .²⁰ من غير منطق المغالبة وحب البقاء من شأنهما أن تنتقوى بهما الهوية ومقاومة ما يمكن أن يكون مهددا للبقاء، فالهوية الراسخة تشكل الأرضية الصلبة لصمود دائم ومواجهة قوية لأي عدوان يمكن أن يتعرض لها بخطر الزوال.

ويرى الجابري أن إشكالية الهوية تطرح جملة من الثنائيات التي لا يمكن القفز خلفها، أو تجاهلها وهي :الإسلام والعروبة، الدين والدولة، الأصالة والمعاصرة،

والوحدة والتجزئية وهو يذهب إلى إشكالية المتقف العربي النهضوية ، تحكمها بل تنسجها هذه الثنائيات، وبالتالي لا بد من نقدها في إطار رؤية مستقبلية عن طريق التحليل والفحص وبيان ما هو مزيف، وما هو غير مزيف .²¹ والهوية في المعنى الاصطلاحي عبارة عن مجموعة صفات متكاملة ومتفاعلة فيما بينها لتعطي لشخص أو لشعب معين مميزات يعرف بها ولا يختلط أمره فيها أفرادا وشعبا وأما وقوميات "...ومن هنا فالهوية تنقسم إلى قسمين أو نوعين منفصلين ومتداخلين في ذات الحين هما :

الأول : هوية فردية وهي مجموعة علامات أو سمات وقرائن نفسية وجسدية خاصة بشخص بعينه تميزه عن غيره من أنباء جنسه وهي بصمات الأصابع والبصمات الصوتية وبصمات العين والشفرة الوراثية المكتشفة حديثا داخل كل خلية في جسم الإنسان و التي تجعله يختلف بها عن أبيه وابنه وكل أسلافه وأخلافه في رقمه .فهذه قرائن خاضعة للتجربة والقياس تحدد هوية كل فرد من الناس .

الثاني : هوية وطنية أو قومية وهي مجموعة من الصفات أو السمات الثقافية العامة التي تمثل الحد الأدنى المشترك بين جميع الأفراد الذين ينتمون إلى هذه الأمة أو هذا الشعب والاختلاف في مقومات الهوية الفردية والهوية القومية هو اختلاف في النوع وليس في الدرجة فالهوية الفردية ذات سمات جسدية بالأساس والهوية القومية ذات سمات ثقافية بالأساس ولا تتناقض بينهما وتلك معادلة يمكن القول فيها بأن بصمات الأصابع الفردية تميز كل فرد عن غيره فإن الثقافة الوطنية أو القومية في عمومها بصمات خاصة تجعل الأمة تتميز عن غيرها فحدد لي ثوابت ثقافتك احدد لك سمات هويتك الوطنية والقومية .²²

5 علاقة الثقافة بالدين :

يرى بعض الباحثين أنه لا يوجد في حياة المجتمعات البشرية ألقى بالثقافة من الدين واللغة على أن اللغة وإن كانت واضحة العلاقة بالثقافة، فإن الدين بلغ في تأثيره في الثقافة وتأثره بها أحيانا درجة جعلت العلماء يختلفون في وصف أو تحديد نوعية تلك العلاقة فهل هي علاقة جزء بكل أم علاقة كل بكل أم هي علاقة تطابق في كل الملامح أم علاقة اختلاف ؟ أي هل الثقافة جزء من الدين أم الدين جزء من الثقافة ؟ أم أن لكل منهما علاقة تطابق متكافئة بكيفية لا تابع ولا متبوع .اختلفت

أنظار الدارسين في ذلك على مذاهب وآراء ولكل حجته ونظره ويمكن أن نعرض
بإيجاز هذه الاتجاهات :

أ -الاتجاه الأول :يجعل الدين أساسا للثقافة ، فالدين بما فيه من قيم وارتباطات
بالعالم العلوي والروحي (والأرضي) (المادي) ومن أحكام وتشريعات وسلوك هو
المتحكم في كل الظواهر الثقافية في المجتمع الذي يدين بهذا الدين أو ذاك خاصة
الإسلام وبهذا المعنى يكون الدين سابقا على الثقافة بالضرورة ومتحكما ومؤثرا فيها
إن كليا أو جزئيا بمقدار تمسك المجتمع بتعاليم الدين السائد وبالتالي تكون العلاقة بين
الدين والثقافة عند هؤلاء علاقة جزء بكل فالدين هو الكل والثقافة هي الجزء مهما
تبلغ الثقافة من التعقيد .

ب -الاتجاه الثاني :ويرى أن الثقافة أعم واشمل في مجالاتها الحياتية من الدين إلى
جانب أن الثقافة بمعناها العالمي الواسع هي ضرورة لكل المجتمعات الإنسانية مثل
اللغة وأنها موجودة في كل المجتمعات البشرية مهما تكن بدائية إلا أن هناك مجتمعات
وثنية لها ثقافة ولغة بالضرورة ولكن ليس لها أي دين أو لا تدين بأي دين (علمانية
كانت أو ملحدة) ومن ثم تكون العلاقة بين الدين والثقافة عندما يكون للمجتمع دين
يدين به كل أو بعض أفراداه علاقة جزء بكل ومن هنا يكون الدين جزءا والثقافة كلا
مهما تكن درجة التأثير بينهما قوة وضعفا في المجتمع وهو اتجاه مناقض للاتجاه
الأول كما هو واضح .

ج -الاتجاه الثالث :ويرى أصحابه أن علاقة الدين بالثقافة علاقة كل بكل ولكنها
علاقة تطابق واختلاف في آن واحد بين جزء من كل مع جزء من كل آخر، أي أن
الثقافة تمثل كلا مستقلا والدين يمثل كلا مستقلا، وبينهما أجزاء متطابقة وأخرى
مختلفة دون أن يكون الدين جزءا من الثقافة أو تكون الثقافة جزءا من الدين مع العلم
أن تطور هؤلاء الباحثين إلى الدين إذا كانت متفقة من حيث وجود العلاقة فهي كلها
متفقة في المنطق في مفهوم الدين من حيث كونه منزل بالوحي أم هو ظاهرة
اجتماعية من صنع البشر من غير أن تكون له علاقة بالغيبيات (ما وراء الطبيعة) .

د -الاتجاه الرابع :يرى أصحابه أن علاقة الدين بالثقافة علاقة متكافئة أي علاقة
كل بكل وحجتهم أن الثقافة وإن كانت أشمل من الدين في مجالاتها الواسعة من حيث
التعدد والتنوع الذي يشمل جوانب الحياة في أي مجتمع قائم ولا يقتصر على جانبه
الروحي أو السلوكي فإن الدين له من التأثير في أتباعه وعلى الأنماط الثقافية في

المجتمع ما لا تملك الثقافة من عوامل التأثير في الدين ومن هنا كانت الثقافة أعم من الدين في الشمولية وتعدد المجالات، وكان الدين أهم من الثقافة وأكثر تأثيرا في بعض الأنماط الثقافية السائدة في المجتمع.²³

لقد أكد بعض المسيحيين العرب ثنائية الدين والثقافة فالمفكر القومي السوري ميشال عفلق يقول " لا يوجد عربي غير مسلم فالإسلام هو تاريخنا وهو بطولتنا ولغتنا وفلسفتنا ونظرتنا إلى الكون إن الثقافة القومية الموحدة للعرب على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وبهذا المعنى لا يوجد عربي غير مسلم وإن المسيحيين العرب عندما تستيقظ فيهم قوميتهم يعرفون بأن الإسلام هو لهم ثقافة قومية يجب أن يتشبعوا بها ويحبونها ،ويحرصوا عليها حرصهم على أئمن شيء في عربيتهم .ولئن كان عجبي شديدا للمسلم الذي لا يحب العرب ، فعجبي أشد للعربي الذي لا يحب الإسلام " .²⁴ ونفس الرأي يؤكد مسيحي عربي آخر من لبنان وهو فكتور سحاب بقوله " :إن النصراني لا يمكنه أن يكون عربيا ، إذا لم ينتم إلى حضارة الإسلام، فكيف يكون عربيا ذلك النصراني الذي لا يتكلم لغة القرآن ولا يطرب للموسيقى العربية المنحدرة من التجويد القرآني ولا يهتز قلبه للشعر العربي ولا تسحره العمارة الإسلامية، ولا تلهب شرايينه بنار مجاهدة الغرب الاستعماري و لا تسير حياته مفاهيم العربية الاجتماعية الموروثة المتجددة .²⁵

6 علاقة الثقافة بالهوية:

إن الثقافة بكل مكوناتها ومركباتها تختلف من أمة إلى أخرى باختلاف القيم المرتبطة بالتقاليد والمعتقدات وطرق التعبير عنها .فالشعب الجزائري إبان الاحتلال عانى الكثير من مخطط تذويب معالم الهوية ،وسياسة فرنسا تجاه الإسلام واللغة العربية سياسة مدروسة مكشوفة، ولولا التميز الثقافي عن فرنسا عقيدة ولسانا في صمود لما فشل المخطط الاحتلالي .ولا يصبح الإنسان باحثا عن هويته إلا في عصر التحولات ، وتبدل المسلمات وتميع الهويات، ومن ثم فإن البحث عن الهوية ليس إلا أطروحة تمكن من التحول الحضاري، وتدعو إلى النهضة ،وتدفع نحو صياغة جديدة للتاريخ ، وتصبح منهجا للرقى وسلما للحضارة الإنسانية .

و للهوية علاقة مسبقة بالثقافة، فالهوية هي جوهر الشيء وحقيقته فهوية الإنسان أو الثقافة أو الحضارة هي لبها و حقيقتها، وهي مرتبطة بالثوابت والمتغيرات فهوية الإنسان هي ثوابته التي تتجدد و لا تتغير لأنها تتجلى وتفصح عن نفسها ولا

تخلّى مكانها لنقيضها طالما بقيت الذات على قيد الحياة.²⁶ والثقافة تحمل إجابة عن سؤالنا عن مفهوم الهوية وعندما نتساءل عن الثقافة فإننا نتساءل عما يميزنا عن غيرنا والثقافة هي كل ما يسهم في عمران النفس وتهذيبها وإذا كانت المدنية هي تهذيب الواقع للأشياء فإن الثقافة هي تهذيب النفس بالأفكار: فالأولى عمران والثانية عمران لأنهما يمثلان شقي الحضارة التي هي في الأساس العمران.²⁷

و من هنا كان التركيز على الهوية الثقافية، وثقافة الهوية فهما في المجتمعات العربية والإفريقية عرضة للتهديد تحت تأثير الآلة الإعلامية الماحقة التي تريد فرض أنماط ثقافية مغايرة قسرا على المجتمعات المغلوبة على أمرها، التي تأكل مما لا تنتج و تلبس ما لا تنسج، وهي تعمل على أن يتحول ذلك الغزو المفروض والدخيل المسموم إلى ظواهر طبيعية تألفها المجتمعات الشرقية وتستسيغها وتنقلها إلى الأجيال بالتقليد والمحاكاة .

وقبول الآخر والتعايش معه ضرورة حياتية غير أن ذلك لا يعني إلغاء الخصوصيات والارتقاء في أحضان هذا الوافد من غير تحفظ و لا محافظة على الذات يقول نبيل غزلان "يبقى أن نؤكد أن معرفة الآخر لا تستلزم قبوله إذ أن قبول الآخر لا بد أن يكون مرهونا بموقفه منا ، فلا قبول لآخر يمارس القهر والعدوان ولا قبول الآخر ينفي وجودنا و ينكر حقوقنا ، فإذا كانت معرفة الآخر فرض عين فإن قبوله تتفاوت درجته بين المباح و المكروه والحرام ."²⁸ "لقد تغيرت الحساسية في السيطرة على الشعوب فمن النمط العسكري إلى الهيمنة الثقافية والإيديولوجية والاحتلال بالانتماء و التبعية و يذكر الجابري " :أن ثقافة الاختراق تقوم على جملة أوها م هد فيها التطبيع مع الهيمنة و تكريس الاستنساخ الحضاري ، والعمل على ما يفرضي إلى الاستسلام لعملية الاستتباع الحضاري الذي يفقد الشعور بالانتماء للوطن أو الأمة وبالتالي تفرغ الهوية الثقافية من محتواها ."²⁹ "إنهم يبشرون بنمط جديد من الحياة في العالم نمط يتخطى الروابط الوطنية والقومية، ويتحلل من الانتماءات الثقافية المحلية والدينية ويزعمون أن المجتمعات ذات التوافق الثقافي والتجانس العقائدي مهددة بالجمود والتخلف وهم بذلك يعيدون تعريف الهوية الوطنية ويعيدون صياغة جديدة لمصطلحات مفصلية كالهوية و الوطن و الأمة و الشعب و الهجرة والتراث والجنور وغيرها ، ويعملون على تعدد الانتماء وتعدد الولاء لأكثر من وطن وأكثر من ثقافة . وهذا يستدعي مناعة ثقافية حصينة ضد ما يحاك ،وما يخطط له خاصة في

بلادنا التي تعد نموذجا للصراع الممتد عبر القرون خاصة وأن نظرية المفكرين الجزائريين لا تعدو أن تتصور المد الغربي الغازي بأنه كان وسيبقى مت دخلا في شؤون الشعوب التي احتلها وإن حاول تلوين الصورة وتزيين المواقف حتى في محاولته تغيير دلالات مصطلح الاستعمار بالسوق والصورة و الإعلام والاتصال والانفتاح وحقوق الإنسان وغيرها من الشعارات الخادعة .

7) اللغة و الهوية في الجزائر :

أمضى "كاميل شوطان" رئيس الحكومة الفرنسية في 08 فبراير 1938 مرسوما ينص على أن اللغة العربية في الجزائر لغة أجنبية، وأجمع المفتشون العامون الفرنسيون في 05 مارس 1945 في الجزائر أن اللغة العربية لغة لا تعدو أن تكون إحدى ثلاث : إما لغة كلاسيكية أو لغة فصيحة حديثة وافدة من الشرق أو لهجة عامية دارجة وعليه فلا عربية في الجزائر وهناك أزمة أخرى تتعلق بالهوية وهي إنكاء فرنسا للنزعة البربرية التي وجهت أساسا ضد الانتماء العربي الأصل الذي تعترف به الأمة الجزائرية برمتها ، ومعلوم أن اللغة البربرية (الأمازيغية) تراث أصيل تملكه الجزائر ولا يصطدم في أي مرحلة من مراحل تاريخنا مع العربية و الإسلام ؛ بل كان البربر علماء في الشريعة الإسلامية و اللغة العربية .

"واللغة هي المكون الأساسي الثاني لهوية أي شعب أو أمة لأنها وعاء الثقافة والعلوم والمعارف وأداة التواصل والتفاهم ووسيلة للتعبير العلمي والفني والعادي، وأداة التأثير في العقول والنفوس بأدبها ونثرها وشعرها وقصصها وأساطيرها ولكل لغة خصائص ومميزات تؤثر في ثقافة المجتمع الناطق بها و تنعكس على تفكير أفرادهم ومشاعرهم و سلوكياتهم فاللغة ليست وعاء جامدا أو ناقلا محايدا لكنه عنصر فاعل و مؤثر في المحتوى والمضمون الذي تقوم بنقله وتبليغه ..وربما فشل الاستعمار في طمس الهوية عن طريق الدين ولكنه يحاول محو الهوية عن طريق اللغة وبالتالي اقتلاع الدين من عقول وقلوب معتنقيه .وقد حاول إحلال لغة أجنبية محل العربية كلغة للمعاملات الرسمية والإدارية و التعليم والعمل العصري وحصر العربية في شؤون أهلية والتعليم التقليدي وهذا ما حدث في أغلب بلاد إفريقيا الإسلامية جنوب الصحراء، أو محاولة استبدال الحرف العربي بالحرف اللاتيني في كتابة بعض اللغات المنتشرة في بعض الدول الإسلامية كتركيا وماليزيا أو محاولة تشجيع اللهجات العامية المستعملة، وتحويلها إلى لغات رسمية تحل محل الفصحى في المعاملات

والإدارة والتعليم، وترافقت هذه الحملة مع الربط بين تخلف العرب والمسلمين من خلال الزعم أن هناك لغات للتقدم والحضارة ولغات للتخلف والرجعية . و قد استخدم الاحتلال الفرنسي الأساليب الثلاث في جزائرها الصامدة .³⁰

ولن تستقيم هويتنا اللغوية إلا إذا أخذت العربية مكانتها بضرورة التطوير والترقية والانفتاح والتلاقح مع كل اللغات الحية . ولا توجد لغة سيده ولغة مستعبدة . والهوية الوطنية لا تضيق ذرعا بالتعددية اللغوية ولكن يجب أن تكون مصدر إثراء وثراء وتنزع وإبداع ولا يمكن أن نحولها إلى عامل فرقة وتمزق و تشتيت خاصة إذا استخدمت القضية اللغوية لأغراض سياسية مصلحية ضيقة ؛ وأعود لأقول أنه لا توجد لغة علم وتقدم وحضارة وأخرى لغة تخلف وانحطاط بل كل اللغات بإمكانها أن تتحول إلى لغات للعلم والتكنولوجيا عندما تتوفر الأجواء الملائمة أي عندما ينهض الناطقون بها في إنتاج العلم والثقافة والمعرفة والدليل على ذلك واضح فبعض اللغات الآسيوية إلى لغات حية عندما تحولت دولها إلى التقدم وامتلكت ناصية العلم والتكنولوجيا رغم أنها من الناحية اللسانية و اللغوية في غاية التعقيد في حين ما زالت الكثير من الشعوب والدول ترزح تحت الفقر والضعف والتخلف رغم اعتمادها على الانجليزية والفرنسية لغة رسمية . واللغة العربية في الجزائر يصدق عليها ما يصدق على غيرها من اللغات في إطار قوانين الكون العامة و النواميس التي تحكمه، فلغة ضعيفة لا تعطي هوية قوية .

الخاتمة :

- و في آخر المطاف نخلص إلى جملة من النتائج :
- (1) كلما جئنا نعرف الثقافة أو الدين أو اللغة أو الهوية إلا ووجدنا أنفسنا أمام بيان العلاقات والوشائج التي تربطها فيما بينها دون شعور منا أو قصد .
 - (2) إحياء الحديث عن الهوية و مكوناتها ورصد التحولات الاجتماعية يبقي قضية الهوية حاضرة على موائد النقاش و الحوار الجاد .
 - (3) إدراك التحولات العالمية والمحلية على جميع الأصعدة والمجالات مفيد ومهم في النقاش حول الثوابت والمتغيرات وإدراك الثابت والمتحول.
 - (4) إن الهوية الثقافية هي صمام الأمان وجوهر التماسك لدى الأمة الجزائرية وأن أي مساس بها هو تقويض للبناء القائم الذي رسخه الدين في إطار الأخوة بعيدا عن النعرات والعصبية في ظل تحديات العولمة المسطرة على الأمم والشعوب .
 - (5) إن اللغة هي حجر أساس الثقافة والدين، والدين أساس الثقافة وروحها والدين حامي الثقافة من الانزلاق والكل ينصهر ليشكل هويتنا الوطنية.
 - (6) يحتاج موضوع الهوية إلى مزيد من البحث و التعمق الأكاديمي، واعتباره محل عناية الأمة برمتها حاكما ومحكوما ، مثقفا وغيره .
 - (7) إبعاد الهوية عن التوظيف السياسي والنظرة الضيقة حتى لا يكون موضوعا لإثارة النعرات والعصبية وسببا في الفرقة والفتن والعنف .

عدد خاص الملتقى الدولي حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري	مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية
---	------------------------------------

الهوامش :

- (1) محفوظ نحناح ، الجزائر المنشودة المعادلة المفقودة ، الاسلام الوطنية الديمقراطية دار النبا ، الجزائر ، ط 1، 1999، ص 91.
- (2) غوستاف لويون ، حضارة العرب ترجمة عادل زعيتر ، ص 417.
- (3) محفوظ نحناح ، الجزائر المنشودة ، ص 93-94.
- (4) البقرة آية رقم 31 .
- (5) الزخرف آية رقم 18 .
- (6) فيه إشارة إلى قوله تعالى {و أخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معي ردا يصدقني إني أخاف أن يكذبون} القصص آية رقم 34 .
- (7) زيد الخير مبروك، اللغة و الهوية في الثقافة الجزائرية ، حصائل الأعمال العلمية للملتقى الوطني الأول حول دور العلوم الإسلامية لإرساء الهوية و مواجهة التحديات المعاصرة - لمنعقد يومي 4-5مايو 2010، ص 55.
- (8) فرديناند ديسوسير ، دروس في الأسنسية العامة ، ترجمة صالح القومالي وآخرون ، الدار العربية للكتاب ، بيروت 1985، ص 29 وما بعدها 110-117.
- (9) علي نبيل، الثقافة العربية وعصر المعلومات، رؤية المستقبل الخطاب الثقافي العربي ، عالم المعرفة ، الكويت ، عدد 265 يناير 2001 ص 174.
- (10) زكي جيب محفوظ ، جابر بن حيان ، القاهرة ، (د ت)، ص 139.
- (11) جون جوزيف ، اللغة والهوية قومية إثنية دينية ترجمة عبد النور خرافي عالم الفكر ، الكويت ، عدد 342 أغسطس 2007، ص 22.
- (12) أحمد بن نعمان ، العلاقة العضوية بين الثقافة والهوية حصائل الأعمال العلمية للملتقى الوطني الأول حول دور العلوم الإسلامية لإرساء الهوية ومواجهة التحديات المعاصرة ، ص 25-26، و ينظر أيضا كتابه "الهوية الوطنية الحقائق والمغالطات "
- (13) نفسه ص 27.
- (14) مصطفى محمد طه ، الهوية بين الشكل والمضمون ، مجلة التسامح العدد 04 سلطنة عمان خريف . 2004،
- (15) مجمع اللغة العربية ، المعجم الوسيط ج . 99 / 2 و ينظر ابن منظور لسان العرب ج 60 ص 47-26.
- (16) الجرجاني علي بن احمد الشريف ، التعريفات مادة (هوى) دار الفكر بيروت ط 1998.
- (17) محمد عمارة ، الهوية الحضارية ، مقال مجلة الهلال عدد فبراير 1997.
- (18) محمد عابد الجابري ، الموسوعة الفلسفية العربية ج 1 مصطلح الهوية طبعة معهد الإنماء العربي ، بيروت 1980 ص 821.

مجلة العلوم الإنسانية و الاجتماعية	عدد خاص الملتقى الدولي حول الهوية والمجالات الاجتماعية في ظل التحولات السوسيوثقافية في المجتمع الجزائري
---------------------------------------	--

- (19) مصطفى محمد طه ، مقال ماذا تعني الهوية الإسلامية ، مجلة الدعوة الرياض عدد 1544، 1996، ص30 وما بعدها .
- (20) إبراهيم مذكور ، في الفلسفة الإسلامية مهج و تطبيقه، دار المعارف القاهرة 1968 ص02.
- (21) محمد عابد الجابري ، إشكالية الفكر العربي العام مركز دراسات الوحدة العربية بيروت ط 1990 ص 102-103.
- (22) أحمد بن نعمان ، العلاقة العضوية بين الثقافة و الهوية ، ص 25-26.
- (23) نفسه ص27-28.
- (24) في سبيل البعث طبعة بغداد 1987 ج3 ص 68.
- (25) مقال له في جريدة النهار اللبنانية 06/06/1982.
- (26) محمد عمار ، الهوية ضمن كتاب مؤتمر التاريخ الاسلامي و أزمة الهوية الصادر عن جمعية الدعوة الاسلامية العالمية ، ليبيا ، 2000 ط4 ص 249.
- (27) نفسه ص 249.
- (28) نبيل غزلان، العرب و الآخر ، مجلة العربي ، الكويت نوفمبر 2001 العدد 516 ص 31.
- (29) محمد عابد الجابري ، قضايا في الفكر المعاصر بيروت مركز دراسات الوحدة العربية 2003 ص 147.
- (30) محفوظ نحاح ، الجزائر المنشودة ص . 100 – 99.